

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human
and Social Sciences



مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية
والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

الثنائية الديكارتية: التمييز بين النفس و الجسم

Cartesian Dualism: Body-mind Distinctness

د. مبروك طحطاح، Dr.Tahtah mabrouk

جامعة زيان عاشور- الجلفة -Ziane Achour University-Djelfa

tahtahmab@gmail.com

تاريخ القبول: 2018-11-25

تاريخ الاستلام: 2018-07-17

ملخص:

يعدّ ديكارت أول من بحث بصورة منتظمة العلاقة بين النفس والجسم على الرغم من أنّ التمييز الفلسفي الهام يعود إلى الفلاسفة اليونان.

في هذا المقال أود أن أثيرو أن أجيب عن بعض التساؤلات التي تساعدنا على فهم الثنائية الديكارتية ، ومن أهم هذه التساؤلات التي تلقي الضوء هو ماذا يقصد ديكارت بالتمييز بين النفس والجسم. سأذكر في مقالي هذا الحجج التقليدية للتمييز بين النفس والجسم كما وردت في مختلف أعماله، لكنّ تركيزي يكون على الحجة الإبستمولوجية كما اهتم بها المعاصرون، وكما وردت في كتاب التأملات.

كلمات مفتاحية:

ديكارت؛ الثنائية الديكارتية؛ الجسم؛ النفس؛ الجوهر؛ التمييز؛ الحجة الإبستمولوجية.

Abstract :

Although the interest philosophical distinction between minds and bodies can be traced back to the greeks, Descartes gave the first systematic account of the mind and body relationship .

In this paper, I would like to raise and to answer some questions, that will help us to understand cartesian dualism, these questions shed light on what Descartes means in asserting what mind and body are radically distinct. So, I will mention the traditional arguments for the distinction, but I'll focus on The Epistemological Argument for Mind-Body distinctness , as it is mentioned in the Cartesian meditations.

Keywords: Descartes; Cartesian Dualism; body ; Self(Mind) ; substance; Distinctness; The Epistemological Argument.

1. مقدمة:

أخيراً التركيز على مختلف الحجج التي أوردها ديكارت للتمييز بين النفس والجسم، وأهمها الحجة الإستيمولوجية أو ما تعرف بحجة الانفصال في بعض الكتابات الغربية المعاصرة.

2. تبلور مفهوم الثنائية تاريخياً:

ما هو أكيد في تاريخ فكرة الثنائية أنها لم ترتبط بفيلسوف بعينه، وإنما ظهرت بالتدرج، ونحن نحاول أن نتبع هذا الظهور وهذا التطور حتى عصر ديكارت، لنبين السياق التاريخي الذي تبلور فيه مفهومها وكيفية صياغة إشكالاتها والصعوبات التي تعترضها. وعلى الرغم من أن الثنائية تضرب بجذورها في أعماق الوجود البشري، إلا أننا لا نعثر على أفكار واضحة منذ البدايات الأولى عن التفرقة بين ما هو روحي وما هو مادي، أو بين النفس والجسم، أو بين الفكر والامتداد. إن التمييز بين النفس والجسم، أو الاتصال بينهما، على مستوى الإنسان خصوصاً، لم يظهر دفعة واحدة، بل كان تدريجياً مع تطور التفكير الإنساني، مع أن التمييز بين النفس والجسم ظهر للإنسان البدائي، وقد أدركها الإنسان من خلال تجربة الموت - حسب مؤرخ الفلسفة اليونانية الألمانية تسلر⁽¹⁾. لكن هذا التمييز بين النفس والجسم لم يكن يحمل بعد التمييز بين المادي والروحي.

ما ميز الفلسفة الطبيعية القديمة اليونانية هو حديثهم عن أصل العالم، وقد مثلت البدايات للفلسفة محاولة لتفسير أصل العالم الحسي وتركيبه من مصدر طبيعي محدد⁽²⁾. وتتعلق المشكلة بالنسبة للأوائل بطبيعة ذلك المبدأ الأول الذي صدرت عنه جميع الأشياء⁽³⁾، كالماء والهواء والنار، والتراب، كما يمكن أن توصف تلك النزعة الفلسفية التي مثلتها مرحلة ما قبل سقراط بالنزعة المادية مع الفلسفة الأيونية، فحتى العقل قد انتهى بهم التأمل إلى أن يضيفوه إلى جانب ذلك المبدأ ولكنهم اكتفوا بأن ينظروا إليه كصفة جديدة من صفات المادة⁽⁴⁾، ثم تحولت إلى نزعة روحية مع الفيثاغورية، إذ بحثوا عن المبدأ في العدد. ثم اتضحت النظرية المادية مع الذرين بصورة جلية، ومن ثم تصبح التفرقة بين المادة والقوة التي تحركها أمراً لا معنى له، فالنفس ليست قوة من شأها تنظيم العالم، بل هي جزء من المادة. لكن عدول الإيليين والفيثاغوريين في تفسير الأشياء عن العنصر المادي إلى عنصر مجرد، وتطور الفكر الهليني مَهَّد كل هذا للتفرقة بين ما هو جسماني وما هو روحي، ولعل ألكساغوراس أول من تحدّث عن هذه التفرقة بوضوح، لكن لم تكن لديه عن هذه التفرقة فكرة متميزة تمام التمايز⁽⁵⁾. فقد ميز بين المادة (الذرات) والقوة التي تحركها وتنظمها وهو العقل أو النوس، لكن العقل بتصوره ضرب من نفس العالم، وهو جوهر يحتل مكاناً وسطاً، فيرتبط بالروح عن طريق البساطة والاستقلال والفكر، ويرتبط بالجسد عن طريق الكم، وربما عن طريق

تعدّ ثنائية الجسم والنفس عند ديكارت من أهم جوانب فلسفته ذكراً ومناقشة في الكتابات الفلسفية الحديثة والمعاصرة، وهي إشكالية مركبة حيث كل جزء منها يثير عديد التساؤلات، وإن كانت مشكلة العلاقة بين المادي والروحي، أو بين النفس والجسم قديمة في الطرح، إلا أن ديكارت أعطى لها الإثارة والمناقشة بصورة أكثر جدية، فما قامت الفلسفة التي تأثرت بديكارت في أحد جوانبها إلا بحل ما خلفته الثنائية الديكارتية من أزمة على مستوى الفكر الفلسفي الحديث وتدايها اللاحقة، خاصة ما تعلّق بمشكلة تفسير العلاقة التفاعلية بين الجوهرين.

يمكننا أن نشير إلى أن الثنائية الديكارتية يمكن تفكيكها إلى مجموعة مشكلات، إذ يمكن في هذا الصدد أن نحدّد مشكلتين رئيسيتين وإن كانتا متميزتين إلا أنّهما مترابطتان، ونقصد بذلك: مشكلة التمييز بين ما هو مادي وما هو نفسي، أو بين النفس والجسم من جهة، ومشكلة العلاقة بينهما، أو التأثير المتبادل بينهما من جهة ثانية، وعلى هذا يمكننا أن نطرح الإشكالية التي تغطي الموضوع في مجمله: إذا كانت النفس متميزة عن الجسم ومنفصلة عنه، فكيف يمكن أن تصور وحدة بينهما، ومن ثم وجود علاقة بينهما؟ ومن منطلق هذا التحديد يمكننا تفكيك هذه الصياغة إلى: أولاً، هل أوجد ديكارت حججاً للتمييز بين ما هو نفسي وما هو جسدي عند الإنسان؟ وما طبيعة هذه الحجج؟ ثانياً، واقع حياة الإنسان يفترض وحدة بين النفس والجسم، أو تفاعلاً بينهما، فأين تكمن هذه الوحدة أو العلاقة المتبادلة بينهما إن وجدت؟ وما طبيعتها؟

بوَدنا أن نشير هنا إلى أننا لا نناقش في هذا المقال سوى الجزء الأول من الإشكالية، ذلك الجزء الذي يتعلّق بمسألة التمييز بين النفس والجسم في فلسفة ديكارت، ونهدف من خلال هذا التركيز على الحجة التي اعتمدها الدارسون المعاصرون، والتي عدّت الجسر الرئيسي بين الديكارتية التقليدية والديكارتية المعاصرة. لكن ولأجل ذلك كان علينا أن نطرح سريعاً صورة الثنائية تاريخياً، وبالأخص صورة التمييز بين ما هو مادي وما هو نفسي قبل ديكارت، وكيف تبلور هذا التصور في تاريخ الفلسفة. ثم نعرض صورة الثنائية عند ديكارت، ثنائية الجوهر: النفس كجوهر مفكرو الجسم كجوهر ممتد، إلى جانب الجوهر الإلهي الخالد، كما عرضها ديكارت في أهم أعماله، مثل "مبادئ الفلسفة"، و"التأملات في الفلسفة الأولى"، و"انفعالات النفس"، وبعض مراسلات ديكارت وردوده المختلفة عن الاعتراضات التي قدّمها فلاسفة عصره عن كثير من قضاياها الميتافيزيقية التي تضمنتها تأملاته.

أفلوطين، ثابتة محدّدا، فإنّها تظلّ خالية من الحياة، عاجزة عن الفكر، على الرغم من جمالها المستعار..⁽¹²⁾.

في العصر الوسيط، وكما هو معلوم، ظلت صورة الثنائية تكراراً لأقوال أفلاطون، وأقوال أرسطو، على وجه العموم، لكن مع عصر النهضة والتوجه نحو دراسة الكون، برز البحث في ماهية المادة، وهذا ما ترجمه عبارة برونو: "إن الأشكال الكثيرة اللامتناهية التي تظهر المادة فيها لم تستعرها من شيء آخر، أي أنّها لم تتقبّلها من الخارج بل تستخرجها من ذاتها....، فليست المادة إذن هذا العدم المطلق، وليست عاجزة عن التأثير..المادة تحتوي في ذاتها على كل الصور"⁽¹³⁾. ثم تمّ إحياء نزعة ديمقريطس و الأبيقورية مع علماء العصر الحديث مثل بيكون والفرنسي بيير غاسندي الذي انتهى إلى أن المادة من خلق الله ، وهذا ما يختلف به عن الفلاسفة الماديين. وصولاً إلى ديكرت الذي تبدأ معه مشكلة الثنائية بصورة أكثر خصوبة لما يخلفه موقفه من ردود واعتراضات. ويمكننا أن نميّز جانبين في مسألة الثنائية الديكارتية، أولاً التمييز بين النفس والجسم من جانب، والثاني مسألة العلاقة بينهما من جانب آخر، وإنّ كنّا في مقالنا هذا نحصر المناقشة في الشق الأول فقط، أي في مسألة التمييز بين النفس والجسم كما اهتمّ بها المعاصرون الغربيون، وسيكون لمسألة وحدة النفس والجسم، أو العلاقة التفاعلية بينهما موضوع مقال آخر.

3. الثنائية عند ديكرت:

في البدء علينا أن نشير إلى أنّ الثنائية عند ديكرت ليست صورة واحدة، كما نعتقد دائماً، ثنائية النفس والجسم، بل عندما يتحدث عن الجواهر المخلوقة والجواهر غير المخلوقة، يتحدث في واقع الأمر عن ثنائية الوجود، الوجود الإلهي المتعالي والوجود الحسي، لكننا نحن نناقش هنا ثنائية الإنسان فقط من حيث أنّه مكون من جوهريين. في رسالة مؤرخة في 28 جوان 1643 إلى الأميرة إليزابيث Elizabeth، و بعد رسالة سابقة شعر فيها بعدم إيفاء حقه في الإجابة عن سؤال يخص ذاته، كتب ديكرت : "أما العناصر الأساسية التي أغفلنا عن ذكرها فهي تبدو لي كالآتي: أولاً وقبل كل شيء قد ميّزت بين ثلاثة أنواع من الأفكار والمفاهيم الأولية، حيث يعرف كل واحد منها بصفة خاصة وليس عن طريق مقارنتها بعضها ببعض، المفاهيم التي أملكها عن النفس، والتي أملكها عن الجسم، والتي أملكها عن الوحدة بين النفس والجسم، بعد هذا التمييز كان عليّ أن أفسر الفرق القائم بين هذه الأنواع الثلاثة في المفهوم، وبين عمليات النفس التي تمكننا منه.."⁽¹⁴⁾ ، ثم يضيف في الرسالة ذاتها الفرق الكبير بين هذه المفاهيم الثلاثة من حيث مصدر معرفتها وإدراكها حيث يقول: "وإنّي ألاحظ في البدء فرقا كبيرا بين هذه الأنواع الثلاثة من المفاهيم؛ حيث لا يمكن تصور النفس إلاّ بواسطة التفكير الخالص، ولا يمكن تصور الجسم، وأقصد بذلك

الامتداد. وريّما حتّى سقراط - حسب جانبيه - لم يفعل شيئاً سوى أنّه خلع على العقل دوراً أهم. الله عند سقراط نوع من نفس العالم، وليست نفس الإنسان إلاّ جزءاً صغيراً من العقل الكلّي، وجسده ليس إلاّ جزءاً صغيراً من العناصر المادية"⁽⁶⁾.

مع أفلاطون تبدو الصورة أكثر وضوحاً إذ يقدّم نظرية في النفس، ويتصور العالم ككائن حي، له نفسه وله جسده، ونفس العالم من خلق الصانع، حيث تمثل وسيطاً بين العالم المعقول والعالم المحسوس، والنفس حاصلة في ذاتها على مبدأ حركتها، وتحرك النفس عالم الأبدان، وهي مبدأ النظام والانسجام، ومبدأ كل معرفة كما ذكر أفلاطون ذلك في محاوره طيمائوس. أما النفوس الفردية فتظهر على أنّها أجزاء من نفس العالم، إذ هي بسيطة لا جسمانية، سابقة على الجسد الذي حلّ فيه.⁽⁷⁾ أما مع أرسطو فصورة الثنائية تأخذ شكلاً آخر، فقد اشتهر بموقفه في أنّ كل موجود في عالم التغيّر ينتج عن اتحاد المادة بالصورة. وقد اعتبر أرسطو كلاً من المادة والصورة جوهريين، وحتّى المركب منها أيضاً جوهراً، يقول أرسطو في "كتاب النفس": "ولكن الجوهر أول ما يقال عليه هو الهبولى، يعني ما ليس بذاته شيئاً معيناً، ويقال ثانياً على الهيئة والصورة التي بمقتضاها تشخص الهبولى، ويقال ثالثاً على المركب من الهبولى والصورة"⁽⁸⁾. وهذا ما يلخصه أيضاً في كتاب "ما بعد الطبيعة": "ويقال مثل هذا بنوع ما الهبولى، وبنوع آخر الصورة، وبنوع ثالث الذي منهما"⁽⁹⁾ يقول أرسطو: "لما كان الوجود للهبولي إنّما هو في إضافتها إلى هذا الوجود الذي قبله..وهو الصورة"⁽¹⁰⁾. إن الصورة تضيف على المادة المعقولة. الجسم في الكائن العضوي هو علته المادية، أما النفس فهي في مقابله باعتبارها علته الصورية والفاعلة والغائية، وهذان الطرفان (النفس والجسد) يفترض وجود كل منهما وجود الآخر ويستلزمه.⁽¹¹⁾.

أما في عصر ما بعد أرسطو، فالأبيقوريون رجعوا إلى فكرة الذريّتين في أنّ كل شيء جسماني بما فيه النفس، والرواقيون من جانبهم ذهبوا إلى أنّ كل ما هو جسماني حقيقي، لكنهم أضافوا إلى المادة صفات لا تتفق إلاّ مع الجوهر الروحاني، فالنفس مادية. وهكذا فصورتا الجسماني والروحي اللتان تميّزتا مع أفلاطون وأرسطو، عادتا للاختلاط وتلاشى التمييز من جديد.

أما الأفلاطونية المحدثة فأعادت الروحي مقابل المادي من جديد، وأقرّت بالتشابه بين العالم المعقول العلوي والعالم المحسوس من حيث التكوين، إذ يتألف كل واحد منهما من صورة ومادة؛ لكن ما يفرق المادة المحسوسة عن المادة المعقولة، هو أن هذه الأخيرة تتشكل بصفة كاملة عن طريق الصورة، وتتحرك عن طريق المبدأ الأعلى، وهي أزلية أبدية، بينما المادة المحسوسة، حتّى إذا أصبحت، كما يقول

مادمت أفكر؛ فقد يحصل أي متى انقطعت عن التفكير تماماً انقطعت عن الوجود بتاتاً»⁽¹⁶⁾، وهذه ما تعرف بقضية الكوجيتو "أنا أفكر إذن أنا موجود" (*Cogito Ergo Sum*). هذا هو الجوهر المفكر عند ديكارت، أما فائدة هذه المعرفة فهي القاعدة الصلبة وليست الأرض الرخوة أو الرمل المتحرك الذي يقيم عليها البناء الفلسفي «طبيعة هذه المعرفة هي حجر الأساس لنظام ديكارت»⁽¹⁷⁾.

3. 2. الجوهر الممتد (الجسم): هو ثاني أهم عنصر في

مخطط ديكارت الفلسفي الميتافيزيقي، فالصفة الأساسية والأولية للجسم أو المادة هو كونه ممتداً في أبعاده الثلاثة: الطول العرض والعمق، لكن الامتداد هنا ليس مجرد مظهر للجوهر المادي فقط بل جوهره⁽¹⁸⁾. يقول ديكارت في كتابه المبادئ القسم الثاني: "طبيعة الجسم أو المادة لا يكمن في كونه شيئاً صلباً أو خفيفاً أو ذا لون، أو ما يؤثر على الحواس بأي طريقة، ولكنّه ببساطة في كونه شيئاً ما ممتداً في الطول والعرض والعمق. الوزن و اللون ومختلف الكيفيات الأخرى التي ندركها بالحواس، يمكن الاستغناء عنها، بينما تبقى المادة كما هي، وهذا يعني أن طبيعة المادة لا تعتمد على أية كيفية من الكيفيات السابقة .."⁽¹⁹⁾، ويقول في "القواعد": "ونقصد بالامتداد ما له طول وعرض وعمق"⁽²⁰⁾.

في ذهن ديكارت شيان مختلفان عندما يقول أنّ باقي الكيفيات عدا الامتداد يمكن إلغاؤها. لكن قبل ذلك يقول ديكارت دعنا نفترض الفكرة التي نملكها عن جسم ما، وليكن مثلاً الحجر (stone)، لنترك أي شيء نعرف أنّه ليس ضرورياً من طبيعة الجسم" إن الكيفيات المتعلقة بالحجر عدا الامتداد هي كيفيات غير ضرورية، وهي قابلة للإلغاء، إمّا لأنها ليست موجودة في الحجر، (أي لا تنتهي إلى طبيعته الحقيقية)، أو لأنها متغيرة فيمكن إزالته"⁽²¹⁾، ثم يقدم تعليقه في هذا "فبالصلابة يمكن أن تلغى بالانصهار أو بالسحق، إذ ستفقد صلابتها دون أن تفقد كونها جسماً"، و الأمر نفسه يقال عن اللون" فأحياناً نرى الحجارة شفافة وبدون لون أصلاً" و سنلغي كيفية الثقل و الحرارة والبرودة ومختلف الكيفيات الأخرى. وذلك - حسب ديكارت- إمّا لأنها ليست أفكاراً في الحجر ذاته، أو لأنها متغيرة، والحجر بهذا لا يفقد طبيعته الجسمية، بعد كل هذا سنرى أن لاشيء يبقى في فكرة الحجر ماعدا أنّه شيء ما ممتد في الطول والعرض والعمق"⁽²²⁾. وهذا ما كتبه في القسم الأول من "المبادئ" حيث يقول: "وهذه الكيفيات أو الصفات منها ما هي موجودة في الأشياء ذاتها، ومنها ما لا وجود له إلا في فكرنا؛ فمثلاً الزمان الذي نميّزه عن المدة بالمعنى العام - ذلك الزمان الذي أقول عنه أنّه عدد الحركة - ليس إلّا نحواً من الأنحاء التي

الامتداد، والأشكال و الحركات إلّا بواسطة التفكير أيضاً، والأفضل أن يكون بمعونة الخيال، بينما لا يمكن معرفة الأشياء المرتبطة باتحاد النفس والجسم معرفة واضحة بالتفكير لوحده، أو بالتفكير بمساعدة الخيال، بل يتم إدراك ذلك إدراكاً واضحاً عن طريق الحواس"...ولذلك يقول ديكارت "الناس الذين لم يكن لهم حظ من التفلسف إطلاقاً، و لم يستعملوا سوى حواسهم، لديهم بدن شك، معرفة أن النفس تحرك الجسم، وأن الجسم يؤثر في النفس...كل شخص يشعر بأنّه فرد واحد ، وأنّ كلاً من جسمه ونفسه مرتبطان بالطبيعة، وأنّ التفكير يمكن أن يحرك الجسم، ويحس الأشياء التي تحدث له"⁽¹⁵⁾

3.1. الجوهر المفكر (النفس): علينا أن نشير إلى أن ديكارت

ذكر في معظم أعماله الجوهر المفكر، وعندما نقول جوهرًا فهذا يعني وفق التحديد الأسطوي أنّه قائم بذاته، أي هو منفصل عن الجوهر المادي، ففي التأمّلات أثبت وجود هذا الجوهر في التأمل الأول، وأثبت ماهيته وحقيقته في التأمل الثاني، مع العلم أن كتاب "التأمّلات" في مجمله مناقشة لقضيتين أساسيتين، ذكرهما المؤلف كعنوان فرعي للتأمّلات، وهما على التوالي: البرهنة على وجود الله وخلود النفس. أول اليقينيات التي أثبتها ديكارت بعد رحلة الشك هو كونه ذاتاً مفكرة. انطلق "ديكارت" من الشك الكلي (*Universal Doubt*) تحضيراً لفلسفته، فوجد أنّ الطريق مسدود بصعوبة هائلة، فالفلسفة هي محاولة بواسطة الاستدلال للوصول إلى معرفة يقينية موثوق فيها، ولذلك يجب على الباحث في الفلسفة أن ينطلق من يقين تام لبناء استدلالاته حتى تصبح يقينية؛ لكن "ديكارت" اكتشف عندما بحث بالتجربة عن بعض الحقائق التي يعتقد أنّها يقينية والتي لا تكون محل شك أنّه لم يجد شيئاً منها كذلك. حالة "ديكارت" هذه سرعان ما تزول عن طريق اكتشافه لحقيقة لا يمكن أن توضع موضع تساؤل، وهي أنّه كائن موجود. ولا يستطيع أن يشك في هذه القضية لأنّ الشك في ذاته يكون مستحيلًا لو لم يكن هو في ذاته (ديكارت) موجوداً ويقوم بفعل الشك. وهنا وصل "ديكارت" إلى نقطة البداية الحقيقية لنظامه الفلسفي. يقول "ديكارت": "... لكنني اقتنعت من قبل بأنّه لاشيء في العالم بموجود على الإطلاق (وقد أنكر من قبل أن يكون له حواس أو جسم)، فلا توجد سماء ولا أرض ولا نفوس ولا أجسام، وإذن فهل اقتنعت بأنّي لست موجوداً كذلك؟ ههههه...وينبغي عليّ أن أنتهي إلى نتيجة وأن أخلص إلى أنّ هذه القضية "أنا كائن وأنا موجود" قضية صحيحة بالضرورة". لكن ما حقيقة وجود الذات؟ يجب "ديكارت" بأنّه لا يملك أي صفة التي هي من طبيعة الجسم، وحتى بعض صفات النفس، مثل قوة التغذي، و المشي، أو حتى الإحساس...إذّا صيغ أنّ لا جسم لي فلا قوة لي على المشي أو على التغذي، ولا إحساس بدون جسم؛ أما صفة التفكير فهي التي تخصني، ليصل إلى «أنا موجود

نحصل على فكرة متميزة عن وجه بعينه دون أن نفكر في جوهر بعينه⁽²⁷⁾، أما التمييز العقلي أو بالفكر فيعني "أننا نميز الجوهر من صفة من صفاته بدونها لا يكون من الممكن أن يكون لنا به متميزة، أو أن نحاول الفصل بين صفتين من صفات جوهر واحد"، حين نفكر في أحدهما دون أن نفكر في الآخر⁽²⁸⁾. بين هذه الأنواع من التمييز يرى الباحث الأمريكي المعاصر *Hoffman* أن التمييز الواقعي، وعلى وجه الخصوص التمييز الواقعي بين النفس والجسم، هو الذي كان مثار تأويلات مختلفة وحادثة⁽²⁹⁾. ومن هذا الباب تتأسس الحجة الإبيستيمولوجية التي سنشير إليها لاحقاً.

1.4 أدلة التمييز بين النفس والجسم:

يضع ديكارت أمامنا مجموعة أدلة على تميز النفس عن الجسم، والجسم عن النفس، إذ أن النفس جوهر قائم بذاته، والجسم جوهر قائم بذاته، النفس عنده هي "الجوهر الذي يحل فيه الفكر"، والجسم هو "الجوهر المتحيز الذي يتخذ شكلاً ووضعاً"⁽³⁰⁾. يقول ديكارت في كتاب المبادئ: "فإننا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الاعتقاد بأن هذه النتيجة: أنا أفكر، إذن أنا موجود صحيحة. وبالتالي أنها أهم وأوثق معرفة تعرض لمن يدير أفكاره بترتيب: في أننا نعرف أيضاً بعد ذلك التمييز القائم بين النفس والبدن"⁽³¹⁾. كما يذكر في "المقال عن المنهج" الفكرة ذاتها بحيث أن الحديث عن الثنائية يأتي مباشرة بعد إثباته للذات⁽³²⁾. ويقدم ديكارت حججاً مختلفة قد يشترك في بعضها مع فلاسفة آخرين قبله، وأهم ما في هذه الحجج :

الحجة الأولى: قوام هذه الحجة هو أن قوام وجودنا هو النفس، وأن النفس ليست بحاجة للجسم كي توجد، قد توجد بدون الجسم، وأورد هذه الحجة في عمله المبادئ، يقول ديكارت: "لكي نعرف طبيعة النفس وأنها جوهر متميز كل التميز عن البدن: لأننا حين نفحص عن ماهيتنا نحن الذين نفكر الآن في أنه ليس خارج فكرنا شيء هو موجود حقاً، نعرف جلياً أننا لا نحتاج لكي نكون موجودين إلى أي شيء آخر يمكن أن يعزى إلى الجسم، وإنما وجودنا بفكرنا وحده...بالنظر إلى أننا لا نزال نشك في وجود أي جسم في حين أننا نعرف على وجه اليقين أننا نفكر"⁽³³⁾. كما ذكرها بأكثر تفصيل في عمله "المقال عن المنهج": "ثم لما اخترت بانتباه ما كنت عليه، ورأيت أنني قادر على أن أفرض أنه لم يكن لي أي جسم، وأنه لم يكن هناك أي عالم، ولا أي حيز أشغله؛ ولكنني لست بقادر، من أجل هذا، على أن أفرض أن أنني لم أكن موجوداً؛ بل على نقيض ذلك، فإن نفسي كوني أفكر في الشك في حقيقة الأشياء الأخرى. يستتبع استتباعاً جد واضح وجد يقيني أنني كنت موجوداً؛ في حين لو كففت عن التفكير وحده، وكان كل ما بقي مما فرضته حقاً، لم يكن لي مسوق للاعتقاد بأنني

تتعقل المدة عليها، لأننا لا نتصور أن مدة الأشياء المتحركة هي شيء آخر غير مدة الأشياء غير المتحركة، وذلك واضح من أنه إذا تحرك جسمان ساعة من الزمان وتحرك أحدهما حركة سريعة والآخر حركة بطيئة، فإننا لا نحسب في أحدهما زمناً أكثر من الآخر، وإن كنا نفترض في أحد الجسمين حركة أكثر مما في الآخر"⁽²³⁾.

أما بالنسبة للحالة الأولى، التي قلنا أن ديكارت في ذهنه شيء يتعلق بإلغاء الكيفيات من المادة، هي أن هذه الكيفيات هي كيفيات ترتبط بالذات، أي هي كيفيات ذاتية ثانوية، كما اشتهرت عند جون لوك، وليست كيفيات أولية أو موضوعية، وهذا ما كتبه ديكارت عن أحكامنا الخاطئة: "وأن في الجسم الحار شيئاً شبيهاً بالفكرة التي لدي عن الحرارة، وأن في الجسم الأبيض أو الأسود نفس البياض أو السواد الذي أحسه، وأن في الجسم الحلو أو المر نفس ما أحس من ذوق أو طعم"⁽²⁴⁾، في المبادئ يوجز ديكارت ذلك في كيف يمكن أن نعتبر الفقل واللون والشم والذوق والصوت وكل الكيفيات الحسية التي ندركها بحواسنا كموجودات خارجية عتاً، وهي في الحقيقة لا شيء منها موجود في الموضوعات الخارجية. بل هي مجرد ترتيبات وحركات المادة. فالألوان وباقي الكيفيات هذه هي أشبه ما تكون بالجنون⁽²⁵⁾.

أما الشيء الثاني الذي كان في ذهن ديكارت وهو أنه عندما نقول إن طبيعة الجسم لا تتضمن إلا الامتداد، فديكارت هنا لا يقصد أن الجسم لا يملك كيفيات أخرى عدا الامتداد، هو يعتقد بالكيفيات الأخرى للجسم طبعاً، لكن هذه الكيفيات هي نتيجة الامتداد فقط.

4. التمييز: أنواعه وحججه: لفهم الثنائية الديكارتية جيداً

يجب أن نشير إلى مسألة التمييز بين الجواهر والأشياء، فمركز الثنائية الديكارتية يقوم على الفصل بين الجسم والنفس، والتمييز لا يعني سوى القابلية للفصل، وقد أشار ديكارت إلى التمييز وأنواعه في عمله المبادئ، في القسم الأول منه، إذ حدّد ثلاثة أنواع من التمييز، في التمييز الواقعي الفقرة الستون (60)، في التمييز من حيث الحال الفقرة الواحدة والستون (61)، في التمييز المنطقي العقلي أو التمييز بالفكر الفقرة الثانية والستون (62). يقول ديكارت: "أما التمييز الواقعي يوجد في الحقيقة بين جوهرين أو أكثر لأننا نستطيع أن نستنتج تميز جوهرين أحدهما عن الآخر"، لكن ما السبيل لذلك؟ يضيف ديكارت "لأننا مستوثقون بمقتضى ما نعرفه عن الله من أنه قادر على أن يحقق ما لدينا عنه فكرة واضحة ومتميزة"⁽²⁶⁾، أما التمييز من حيث الحال فيقول ديكارت: "التمييز من حيث الحال على ضربين: أحدهما بين التي سميناها وجهاً والجوهر الذي تعتمد عليه، والثاني بين وجهين لجوهر واحد، أما الأول فيمكن ملاحظته من حيث أننا نستطيع أن ندرك الجوهر إدراكاً واضحاً بدون الوجه...ولكن بالعكس لا نستطيع أن

أهم ما نود أن نقدّمه للقارئ العربي حجة لم نعثر حسب بحثنا عليها في الكتابات العربية، وهي حجة إبستمولوجية ذكرها ديكرت في التأمل السادس من كتابه "التأملات". وبرأينا تعدّ عمدة الحجج إذ تتسق ومنطق ديكرت في الوضوح والتميز.

2.4 الحجة الإبستمولوجية أو حجة الانفصال:

الدراسات المعاصرة لمسألة التمييز بين الجسم والنفس لا تركز كثيراً على تلك الحجج المباشرة، بالرغم من أهميتها، بل يكون تركيزها على الحجة الإبستمولوجية التي أوردتها ديكرت في "التأمل السادس"، في تمييزه بين النفس والجسم، وهي مختلفة عما ورد في أعماله الأخرى. وبرأينا تعدّ أهم الحجج لأنها تتسق و مجموعة الأدلة التي قدّمها لمختلف قضايا الفلسفة، كإثبات أشياء العالم الخارجي، وأدلة وجود الله. حجة ديكرت الإبستمولوجية تمثّل جسراً رئيسياً بين الديكارتية التاريخية والديكارتية المعاصرة للقرن العشرين في مناقشة العلاقة بين الجسم والنفس (38). وهذه الحجة التي وردت في التأمل السادس نجد جذورها في التأمل الثاني الذي خصه ديكرت لمعرفة الذات كشيء مفكر ومعرفة الجسم كشيء ممتد متحرك، فلا شيء بضروري عدا أنّه شيء مفكر، هذا ما أثبتته في التأمل الثاني، وهو ما يمكن أن يكون مميّزاً عن أي شيء فيزيائي. فالتفكير وحده هو الذي لا يمكن أن ينفصل عني. وفي التأمل الثاني يتضمن على الأقل تأكيداً، وهو من الأهمية بمكان في هذه المناقشة الخاصة بالحجة الإبستمولوجية، على أنّه يملك فكرة واضحة ومتميزة عن ذاته كشيء مفكر (وبمعزل عن أي تصوّر لما هو مادي وجسمي)

يبدأ التأمل السادس بملاحظة أن الله له القدرة على خلق جميع الأشياء التي أستطيع تصورها في تميّز و وضوح. يقول ديكرت في فاتحة التأمل السادس: "ما من شك أن الله قادر على خلق جميع الأشياء التي أستطيع تصورها في تميّز ...". (39). وهذا يعني ووفق هذه المقدمة أن وجود العالم المادي ممكن لأنني أستطيع تصور الجسم متميز عني. فكل تصور متميز يدل على إمكان وجود متميز. ويقدم حجته في الفقرة الثامنة عشرة. ويجب أن نورد نصها كاملاً كما ترجمها المرحوم عثمان أمين في التأملات، يقول ديكرت: "لما كنت أعرف أنّ جميع الأشياء التي أتصورها في وضوح وتميّز يمكن أن يكون الله قد أوجدها على نحو ما أتصورها، فيكفي أن يتيسر لي تصور شيء بدون شيء آخر، لكي استوثق من أنّ الشئيين متميّزان أو متغايران: لأنّ من الممكن أن يوجد منفصلين على الأقل بقدرة الله الواسعة، ولا أهمية لمعرفتي بأي قوة يحصل هذا الانفصال لكي أضطر إلى الحكم عليهما بأنهما متغايران. وإذا ذهب من كوني أعرف بيقين أنّي موجود وأنّي مع ذلك لا ألاحظ أن شيئاً يخص بالضرورة طبيعتي أو ماهيتي

كنت موجوداً، ولقد عرفت من ذلك أنّي كنت جوهرًا، كل ماهيته أو طبيعته ليست إلّا أن تفكر، ولأجل أن يكون موجوداً فإنّه ليس في حاجة إلى مكان، ولا يعتمد على أي شيء مادي، بحيث أن الإنية، أي النفس، هي متميزة تمام التمايز عن الجسم؛ بل هي أيسر أن تعرف، وأيضاً لو لم يكن الجسم موجوداً البتّة لكانت النفس موجودة كما هي بتمامها" (34).

الحجة الثانية: وتستند هذه الحجة إلى الفرق بين النفس والجسم من حيث قابلية كل منهما للقسمة، وقد أورد ديكرت هذه الحجة في كتابه "التأملات" .. ولكي نبتدئ هذا النظر ألاحظ هنا أولاً أنّ هناك فرقاً كبيراً بين النفس والجسم. من حيث أنّ الجسم بطبيعته منقسم دائماً، في حين أن النفس لا تنقسم. ذلك أنّي حين أنظر إلى النفس، أي حين أنظر إلى ذاتي من حيث إني شيء مفكر لا أستطيع أن أميز في أجزاء ولكني أعرف وأتصور تصوراً واضحاً جداً أنّي شيء واحد تام لا يتجزأ... (35)

الحجة الثالثة:

بالإضافة إلى هذه الحجج التي صنفها الدارسون لفلسفة ديكرت. هناك حجة ثالثة تقوم على أساس أنّ النفس ليست بحاجة إلى الجسم لكي تدرك بعض المعقولات، أي أن النفس تستغني عن جميع الصور التي تقدمها الحواس أو الخيال، وإنّما تدركها النفس بواسطة النور الطبيعي، كما يقول ديكرت في التأمل السادس، وبدون معونة الجسم. وهذه المعقولات هي التي تتعلق بالمبادئ والأوليات الفطرية يقول ديكرت في ردّه على الاعتراض السابع من الاعتراضات لأستاذ الرياضيات الفرنسي "بوردان" *Bourdin, Pierre* (1595-1653) "أنّ هدفي الرئيسي كان دائماً لفت الانتباه إلى بعض الحقائق البسيطة جداً التي هي فطرية في أذهاننا..". (36). وهذه الأفكار من السهولة بمكان اكتشافها من طرف المتأمل أوضح من أي شيء آخر يعرفه الإنسان عن طريق الحواس، ومن أشهر هذه الأفكار التي يذكرها دوما في كتبه: الأفكار الفطرية عن الله، والنفس البشرية، والجوهر الممتد، المفاهيم المشتركة *Common notions*. أو المعاني الشائعة بتعبير عثمان أمين (1905-1978). وهي مصطلح من أصل يوناني أستعمل ليشير إلى مبادئ إقليدس (*Axioms*). يستعمله ديكرت كمصطلح تقني ليشير به إلى المبادئ المنطقية الأساسية مثل الأشياء المساوية لشيء ثالث متساوية (37). يقدم ديكرت أمثلة عديدة عنها مثل يستحيل أن يكون الشيء موجوداً وغير موجود في الوقت نفسه، وأنّ من يفكر لا يمكن أن يخلو من الوجود حين يفكر. كل هذه الأفكار والمبادئ تدركها النفس بمعزل عن الجسم ولو لم تكن النفس منفصلة عن الجسم ما كان لها أن تدركها بذاتها وبدون مساعدة الجسم. لكن

7- وبالتالي، ووفق المقدمات 3-5 و 4 فإن ماهيتي (نفسي) متميزة عن الجسم، ويمكن أن توجد نفسي بمعزل عن الجسم. وهذه هي الخلاصة المنطقية التي أرادها ديكرت (41).

أما الكاتب *Hoffman, Paul* * في مقال مميز أيضاً نشره على صفحات المجلة الفلسفية الأمريكية بعنوان " الفلسفة والبحث الفينومولوجي " *Philosophy and Phenomenological Research* بعنوان " نظرية التمييز عند ديكرت " (42)، حاول أن يناقش فيه مسألة أن التمييز الواقعي بين النفس والجوهر لا يتأتى لنا إلا إذا كنّا نملك تصوراً واضحاً عن ذلك التمييز والفصل بين جوهرين، ولذلك نجده يستخدم مصطلح "الإمكان التصوري" للإشارة إلى حصول تصور واضح وجلي عن الفصل، ومصطلح "الإمكان الميتافيزيقي" عن وجود ذلك التمييز والفصل الحقيقي، وقدّم وفق التقسيمات الثلاثة الأولى للتمييز عند ديكرت ثلاث حالات، وما يهمنا هو الحالة الأولى، لكن وعلى الرغم من هذا، فإننا سنشير إلى الحالات الأخرى التي ذكرها ديكرت:

1- الإمكان التصوري الأول: و الذي يخص التمييز الواقعي الذي ذكره ديكرت في الفقرة الستين (60)، وهو أهم حالة هنا، ومفادها أنه يمكن أن نتصور (ا) بوضوح وتمييز دون (ب)، ويمكن أن نتصور (ب) بوضوح وتمييز دون (ا). وهذه صورة النوع الأول، أما ما يصاحب هذا من إمكان ميتافيزيقي فيمكن التعبير عنها كالآتي: يمكن أن توجد (ا) بدون (ب)، وتوجد (ب) بدون (ا). إذن، نستطيع - حسب ديكرت - أن نستنتج بوضوح وتمييز الإمكان الميتافيزيقي من الإمكان التصوري، أي أن النفس والجسم كجوهرين يمكن أن يوجد أحدهما بمعزل عن الآخر (الفصل بينهما) انطلاقاً من التصور الواضح والتمييز الذي أملكه عن ذلك (43). يقول ديكرت في " المبادئ ": "والتمييز الواقعي يوجد في الحقيقة بين جوهرين أو أكثر لأننا نستطيع أن نستنتج تميّز جوهرين أحدهما عن الآخر: لأننا مستوثقون بمقتضى ما نعرفه عن الله من أنه قادر على أن يحقق كل ما لدينا عنه فكرة واضحة وتمييزة" (44)

في العرض الهندسي وفي الردود على الاعتراضات الثانية يحدّد ديكرت التمييز الواقعي الحقيقي كالآتي: " جوهران متميزان فعلاً عندما يوجد كل منهما بدون الآخر " (45).

وهذا ما فسره ديكرت في ردوده عن الاعتراضات الثانية من أنه قد يكون لنا وضوح عن الإمكان الميتافيزيقي لجوهرين يوجدان بمعزل عن بعضهما البعض وذلك من خلال ما نملكه من إمكان تصوري. يقول ديكرت " ..هل ندّي إذا كنا نفهم بوضوح شيئاً واحداً منفصلاً عن الآخر أنه غير كاف لمعرفة وإدراك أن الشئيين متميزان فعلاً؟ وإذا كان كذلك، يجب علينا أن نقدّم معياراً أكثر وثوقاً للتمييز

سوى أنّي شيء مفكر استطعت القول بأن ماهيتي إنّما انحصرت في أنّي شيء مفكر أو جوهر كل ماهيته أو طبيعته ليست إلا التفكير. ومع أن من الممكن (بل ومن المحقق كما سأبين بعد قليل) أن يكون لي جسم قد اتصلت به اتصالاً وثيقاً إلا أنه لما كان لدي من جهة فكرة واضحة وتمييزة عن نفسي، من حيث أنّي لست إلا شيئاً مفكراً لا شيئاً ممتداً، ومن جهة أخرى لدي فكرة متميزة عن الجسم من حيث أنّه ليس إلا شيئاً ممتداً وغير مفكر، فقد ثبت أن هذه الإنية، أعني نفسي التي تتقوم بها ذاتي و ماهيتي، متميزة عن جسمي تميّزاً تاماً وحقيقياً، وأنها تستطيع أن تكون أو أن توجد بدونه " (40).

- قدمت الفيلسوفة الأمريكية المعاصرة (*Margaret Douler* Wilson) مقالاً هاماً عن "الحجة الإستيمولوجية"، وقد نشرته على صفحات المجلة الأمريكية (*Nous*). ملخص الحجة بإيجاز من خلال رموز معينة تشير إلى عناصر الثنائية الديكارتية وتمايزها عن بعضها البعض:

1- إذا كان (ا) يوجد بمعزل عن (ب) والعكس كذلك، فإنّ (ا) متميّز حقيقة عن (ب)، و (ب) متميّز عن (ا).

2- كل ما أتصوره بوضوح وتمييز يمكن أن يكون الله قد أوجدها على نحو ما أتصورها.

3- إذا كنت أستطيع أن أتصور بوضوح وتمييز أن (ا) منفصل عن (ب)، وتوجد (ب) منفصلة عن (ا)، إذن الله جعلني أتصور أن (ا) و (ب) منفصلان.

4- إذا كان الله قد جعلني أتصور (ا) و (ب) منفصلين، ومن ثمّ يمكن أن يوجد بمعزل عن بعضهما البعض. (ومن هنا، ووفق المقدمة رقم 1، فإنّهما متميزان).

5- ولدي القدرة على أن اعرف بوضوح وتمييز أن (ا) توجد منفصل عن (ب)، و (ب) توجد منفصلة عن (ا)، إذا كانتا هناك صفتين (ج) و (ك)، مثلما أعرف بوضوح وتمييز أن الصفة (ج) تنتمي إلى طبيعة (ا) وأن الصفة (ك) تنتمي إلى طبيعة (ب)، ولديّ تصور واضح وتمييز من أن (ا) لا تتضمن الصفة (ك)، ولدي تصور واضح وتمييز أيضاً أن (ب) لا تتضمن الصفة (ج).

6- عندما تكون (ا) هي ذاتي (نفسي)، و (ب) هي الجسم، وأنّ التفكير والامتداد تستفي والشروط المذكورة على التوالي أعلاه للصفتين (ج) و (ك).

يختلف تصور ديكارت للفكرة حسب تطور أعماله الفلسفية، ففي أعماله المبكرة، ونخص هنا بالذكر كتاب "قواعد لتوجيه العقل" الذي اختلف في تاريخه بين سنتي 1618 و1628؟، و"كتاب العالم" الذي كتب بين سنتي 1630 و1632، وكتاب "مقال عن المنهج" 1637، و"مقالة عن الإنسان" يتردد ديكارت بين أن تكون الفكرة حالة ترتبط بالدماغ (*brain state*) مرة، وبين كونها حالة ترتبط بالعقل مرة أخرى، أي غموض الفكرة في هذه الأعمال بين المعنى المادي والمعنى الذهني للفكرة، أو بين كون الأفكار أحوالاً للجوهر العقلي أو أحوالاً للجوهر المادي، ويظهر جلياً من بعض النصوص الواردة فيها. بينما في كتابه "التأملات في الفلسفة الأولى" الذي كان سنة 1641، وكتاب "مبادئ الفلسفة الأولى" بين سنتي 1644 أو 1647؟ فيستعملها ليصفها على أنها ظاهرة عقلية خالصة. وهذا ما يبدو أيضاً في أعماله المتأخرة مثل "انفعالات النفس" سنة 1649، وكتاب "البحث عن الحقيقة" الذي يرجح أن يكون في السنة ذاتها.

لفظ الفكرة في أعماله المبكرة هي غامضة بين المعنى المادي والمعنى الروحي. في كتابه القواعد (ربما كتب قبل سنة 1629) يقول ديكارت أنه: "إذا كانت المخيلة جزءاً من الجسم، أي جزءاً من الجوهر المادي، وإذا كانت الأفكار مطبوعة في المخيلة، إذن، تلك الأفكار وجبت أن تكون مادية" (50). أما في كتابه العالم الذي كتب بين سنتي 1630-1632 فيستعمل ديكارت لفظ الفكرة ليشير بها إلى حال للجوهر العقلي، لكن عادة ما يستعمل عبارة "الأفكار التي تملك في أذهاننا" فهو يشير إلى أنه يعتقد أنه يمكن أن تكون هناك أفكار أخرى لا توجد في الذهن، أي يمكن أن تكون هناك أفكار في الجسم أيضاً. يظهر هذا الاستعمال بالضبط في كتاب "مقال عن الإنسان" الذي يحتفل أنه بدأ كتابته في وقت متأخر من سنة 1632. في هذا العمل يشرح ديكارت كيف يمكن لآلية الجسم الإنساني (التركيب الميكانيكي) أن تعمل حتى وهي غير متصلة بالنفس العاقلة. وفيما يخص اعتباره للحس فإنه يسمي الصور التي تشكلت في المخيلة الجسمية بالأفكار. ويؤكد صراحة أنه يرغب في أن يطبق لفظ الفكرة عموماً على كل الانطباعات التي تتلقاها الأرواح كما مرت من الغدة الصنوبرية (موقع الخيال والحس المشترك). فهي كينونات مادية بهذا الاعتبار، أما الانطباعات التي تتلقاها، كما يبدو، فهي ترتيبات فيزيائية موصلة إليها. هذا الغموض والتردد في مفهوم الفكرة عند ديكارت- حسب الباحثة Deborah A. Boyle- يبين معنيين لمفهومها لن نجد له تفسيراً مقنعاً سوى يربطه بتطور مذهب الثنائية عنده المشهور في تاريخ الفلسفة بالثنائية الديكارتية، أي تطور نظريته في الجوهر المادي والجوهر الفكري. فعند كتابة "القواعد" يكون ديكارت قد شكّل مذهبه بوضوح في الجوهرين. كما نلاحظ أن بدايات مذهب الثنائية كانت في كتاب "

الحقيقي، وأنّي على يقين بأنّ لا أحد يمكنه أن يزودنا بذلك. فما السبيل لذلك؟ ربما يوجد تمييز فعلي بين شيئين، إذا وجد أحدهما مستقلاً عن الآخر.. يجب أن تكون قادراً على معرفة هذا إذا كان هنا كمعيار للتمييز الفعلي. المصدر والوحيد والممكن لمثل هذا الفهم هو أننا ندرك وجود شيء منفصل عن الآخر، ومثل هذا الفهم لا يمكن أن يكون أكيداً إلا إذا كانت فكرة كل منهما واضحة ومتميزة" (46).

2- الإمكان التصوري الثاني: ويخص النوع الثاني الذي أتى ذكره في الفقرة الواحدة والسنتين (61) المتمثل في التمييز من حيث الحال، ومفاده: يمكن أن نتصور (أ) بوضوح وتميّز بدون (ب)، لكن لا يمكن أن نتصور (ب) بوضوح وتميّز بدون (أ)، ما يقابل هذا من إمكان ميتافيزيقي هو: يمكن أن يوجد (أ) بدون (ب)، لكن لا يمكن أن يوجد (ب) بدون (أ). بدلاً من هذا يمكن أن نتصور (ب) بوضوح وتميّز لكن لا يمكن أن نتصور (أ) بدون (ب)، ما يقابل ذلك هو أنّ (ب) يمكن أن يوجد بدون (أ)، لكن (أ) لا يمكن أن توجد بدون (ب). في أيّ من هذه الحالات، يودّ ديكارت أن يقول أنّ (أ) و(ب) هما متميزان في الحال (47). وهذا ما يؤكده ديكارت في الفقرة الواحدة و السنتين من المبادئ القسم الأول منه.

3- الإمكان التصوري الثالث: وهو التمييز الذي ذكره ديكارت في الفقرة الثانية والسنتين (62)، ويسميه ديكارت بالتمييز المنطقي أو التمييز بالفكر، ونلخصه في الآتي: لا نتصور (أ) بوضوح وتميّز بدون (ب)، كما لا يمكن أن نتصور بوضوح وتميّز (ب) بدون (أ)، وفي هذه الحالة يودّ ديكارت أن يقول أن (أ) و(ب) متميزان بالعقل، وما يقابل ذلك من إمكان ميتافيزيقي هو: لا توجد (أ) بمعزل عن (ب)، كما لا توجد (ب) بمعزل عن (أ). (48) وهذا ما يؤكده ديكارت في الفقرة الثانية والسنتين من المبادئ.

إن تبلور مفهوم الثنائية عند ديكارت قد انعكس على مفاهيم عديدة في فلسفته، ولعلنا ندرك هذا بنموذج لمفهوم محوري في فلسفة ديكارت، وهو مفهوم الفكرة، هل ترتبط بالجوهر المفكر (النفس)، أم بالجوهر المادي (الجسم)؟ تبرز الثنائية في صعوبة ربط الفكرة بمصدرها، التي هي أساس فلسفته كلها، ففي ردّه على بعض الاعتراضات يقول ديكارت "لفظ الفكرة هنا فيه التباس: لأنه إما أن تؤخذ الفكرة على وجه مادي كعملية من عمليات الذهن، وهذا لا يمكن أن يقال أنها أكمل متّي. وإما أن تؤخذ على وجه موضوعي، بمعنى الشيء الذي تمثله هذه العملية... هذا الشيء يمكن مع ذلك أن يكون أكمل متّي من حيث ماهيته" (49). هذا الاعتراف له دلالة على صعوبة البحث في المفهوم بين الوجه المادي والوجه الموضوعي الذهني لتصور الفكرة.

إنّ مسألة التمييز بين النفس والجسم محورية في فلسفة ديكارت، وهي تتعلق بتلك المشكلة التاريخية بين النفس والجسم، أو بين المادة والصورة، وإن كان ديكارت قد قدّم حججاً لإثبات تميّز النفس عن الجسم، والجسم عن النفس، لكن وجدنا أن لهذه الحجج روافد تاريخية، فقد توصل بعض الفلاسفة إلى حجج شبيهة بذلك إن لم تكن هي نفسها أمثال ابن سينا القديس أوغسطين... إلّا أنّ ما قدّمه في التأمل السادس يجعله مختلفاً في نوع وطبيعة الحجة، التي كانت مثار تركيز الدراسات المعاصرة، فهي تتسق ونظام الحجة الذي دأب به على تبرير جميع القضايا الميتافيزيقية في فلسفته ألا وهو: لن أثبت وجود شيء إلّا ممّا أملكه من أفكار وتصورات واضحة ومتميزة عن ذلك الشيء؛ ولذلك انبنت جميع القضايا على أسس موجودة في العقل سواء كانت مغروسة فيه كتصورات وأفكار فطرية، أو وجدت في العقل من أشياء خارجية حسية.. المهم وفق منطق ديكارت ألا أثبت شيئاً بشيء من خارج الذات. وحجته هذه تأسست على إثبات جوهرين متمايزين ومنفصلين عن بعضهما البعض ممّا أملكه من تصور واضح وتمييز عن هذا التميّز بينهما والانفصال.

لكن مسألة التمييز هي الحلقة الأولى فقط من إشكالية الثنائية الديكارتية، لتكتمل بالتساؤل حول العلاقة بينهما إن وجدت تلك العلاقة، خاصة إذا اعتبرنا النفس والجسم جوهرين متمايزين. لن نجيب في مقالنا هذا عن العلاقة بينهما، لأنّه سيكون هذا التساؤل المكمل لموضوع مقال آخر لبحث العلاقة بين النفس والجسم، أو ما يعرف بوحدة النفس والجسم في الفلسفة الديكارتية وربّما تأثيراتها على الفلسفات اللاحقة ونخص بالذكر هنا محاولة العقلانية الكبرى - بعد ديكارت- لحل تلك الإشكالية مع كبار فلاسفة القرن السابع عشر العقلانيين أمثال اسبينوزا، ولبنتر، و مالبرانش وغيرهم.

6. قائمة المراجع:

- 1- ابن رشد، تفسير ما بعد الطبيعة، المكتبة الكاثوليكية بيروت ج 1. تحقيق: مورييس بويج.
- 2- أرسطوطاليس، كتاب النفس، نقله إلى العربية د. أحمد فؤاد الأهواني، مراجعة ألّب جورج شحاتة قنواتي، ط 1. دار إحياء الكتب العربية. 1949. الكتاب الثاني.
- 3- بول جانييه و جبريل سيّاي، مشكلات ما بعد الطبيعة، تر/ يحي هويدي، مراجعة مصطفى حلمي، المركز القومي للترجمة، ط 1، 2015
- 4- ديكارت، رينييه. تأملات في الفلسفة الأولى. ت/ عثمان أمين، المركز القومي للترجمة 2009

العالم" و"مقالة في الإنسان". فقط في كتاب "التأملات" اكتشف ديكارت تشعب فكرة ثنائية الجوهر فأدرك أنّه بحاجة إمّا إلى تحديد الفكرة في معنى ذهني فكري خالص، أو التأكيد على أن لفظ الفكرة يملك معنيين، فالنص المشار إليه سابقاً من الردود الثانية يبيّن ديكارت أنّه اختار الرأي الأول، لكن منذ وقت التأملات أكدّ تماماً على أنّه يقصد بالفكرة حال التفكير فقط. (51).

هذه معالم الحجّة الإستيمولوجية التي قدّمها ديكارت في التأمل السادس، وهي حجة لقت اهتمام المعاصرين بصورة أوضح، لكن لن تخلو مع ذلك من اعتراضات، شأنها في ذلك شأن كل ما تعلق بالتأملات الميتافيزيقية التي وضعها ديكارت، سواء تلك التي تعلقت بالنفس أو الجسم أو الله.. وعلى سبيل الذكر، ماذا لو كان في الحجة شيء غير صحيح؟ دعنا نشير - تقول الكاتبة- إلى بعض الاعتراضات التي وجهت لموقف ديكارت من مسألة التمييز بين النفس والجسم. تؤخذ حجة ديكارت، أو تتأسس في جانب منها على ما يعرف في فلسفته على حجته من الشك، التي يفترض أن تكون كالآتي: نفسي أو ذاتي متميّزة عن كل جسم، فما هو صحيح بالنسبة لكل جسم (ذلك أني أستطيع أن أشكّ فيه) هو ليس صحيحاً بالنسبة لنفسي أو ذاتي. لكن (أ) و (ب) يمثلان شيئاً واحداً إذا كان ما هو صحيح بالنسبة ل(أ) هو كذلك بالنسبة ل(ب) (52)..

اعتراض ثان يبيّن أنّ النفس والجسم من الإمكان أن يكونا متمايزين (يكونان كذلك إذا أراد الله أن يكونا منفصلين) وليس لكونهما هما منفصلان أصلاً. (53).

في المجموعة الأولى من الاعتراضات على التأملات وجد كاتريوس (Caterus) خطأ في محاولة ديكارت الربط بين بالتصور والوجود، أو الانتقال من واقعة أنّه يمكن تصور (أ) و (ب) منفصلين ومتمايزين إلى نتيجة وهي أنّ (أ) و (ب) يمكن أن يوجدوا بمعزل عن بعضهما البعض.

وديكارت في التأمل الأول يستند إلى الشك في الجسم لكن هذا الشك لن يمتدّ إلى وجوده، أي إلى النفس في التأمل الثاني، الذي يتضمن على الأقل تأكيداً مهماً يتعلق بالحجة الإستيمولوجية: ذلك أنّ ديكارت يملك فكرة واضحة ومتميّزة عن ذاته كشيء مفكر بمعزل عن كل تصور عن ما هو مادي. ثم يؤكد إلى أنّه يملك تصوراً متميّزاً عن الجسم كشيء ممتد، وهو تصور منفصل عن ذلك التصور الذي يخص التفكير. (54)

5. خاتمة:

Robert stoothoff, Dugald Murdoch, and Anthony Kenny. (CSMK), Cambridge: Cambridge University Press.1985.

10- Woolhouse.Roger.S., Descartes ,Spinoza, leibniz, The concept of substance in the Seventeenth Century Metaphysics , Routledge, London and New York.1993.

11-

5- ديكارت، رينيه. مبادئ الفلسفة، ت/ عثمان أمين، دار الثقافة للنشر القاهرة.

6- ديكارت، رينيه. مقال عن المنهج، ت/ محمود الخضيرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

7- ديكارت، رينيه، قواعد لتوجيه الفكر، ف14، ت/ سفيان سعد الله، دار سراس للنشر تونس.

8- كولستون، فردريك. تاريخ الفلسفة، مج4، الفلسفة الحديثة، من ديكارت إلى لينتز، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام، المعهد القومي للترجمة، ط1. 2013.

9- ولترستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ت/ محمد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1984.
باللغة الأجنبية:

7. هوامش:

¹ - نقلاً عن بول جانبيه و جبريل سيائى، مشكلات ما بعد الطبيعة، ت/ يحيى هويدي، مراجعة مصطفى حلمي، المركز القومي للترجمة، ط1، 2015 ص: 144

² - Burt .B,c, A Brief of greek Philosophy, BCBurt,MA Boston, Ginn and Company publisher. 1889.p:1.

³ - ولترستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ت/ محمد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1984 ص: 31.

⁴ - بول جانبيه و جبريل سيائى، مشكلات ما بعد الطبيعة، مرجع سابق، ص: 145.

⁵ - بول جانبيه و جبريل سيائى، مشكلات ما بعد الطبيعة، ص: 147.

⁶ - بول جانبيه و جبريل سيائى، مشكلات ما بعد الطبيعة، ص: 147-148.

⁷ - أفلاطون، فيثون 80ب، نقلاً عن بول جانبيه و جبريل سيائى، مشكلات ما بعد الطبيعة، ص: 149.

⁸ - أرسطوطاليس، كتاب النفس، نقله إلى العربية د.أحمد فؤاد الأهواني، مراجعة الألب جورج شحاتة قنوتاني، ط1. دار إحياء الكتب العربية. 1949. الكتاب الثاني، ص: 41.

⁹ - ابن رشد، تفسير ما بعد الطبيعة، المكتبة الكاثوليكية- بيروت- ج1. المقالة الثانية تحقيق.موريس بويج. المقالة السابعة T7.

¹⁰ - المقالة الثانية عشر، C14. ص: 1475.

¹¹ - بول جانبيه و جبريل سيائى، مشكلات ما بعد الطبيعة. مرجع سابق، ص: 151.

¹² - أفلوطين، التاسوعات: التاسوعة الثانية، نقلاً عن بول جانبيه و جبريل سيائى، مشكلات ما بعد الطبيعة، ص: 151.

¹³ - لانج، تاريخ المادية، نقلاً عن بول جانبيه و جبريل سيائى، مشكلات ما بعد الطبيعة. مرجع سابق، ص 111-112.

¹⁴ - the philosophical writings of Descartes. V/3..translated by(CSM), Cambridge University Press.1985. p:226

¹⁵ - Loc.cit

¹⁶ - ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، التأمل الثاني، ترجمة: عثمان أمين، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2009، ص: 95.

¹⁷ - Colkins.M.W, The The persistent problems of Philosophy,. (The Macmillan Company., London: Macmillan & Co.,Ltd 1907). p:25.

¹⁸ - Woolhouse.Roger.S., Descartes ,Spinoza, leibniz, The concept of substance in the Seventeenth Century Metaphysics ; Routledge ;London and New York.1993. p:79.

* سنعتمد على كتاب " المبادئ " لديكارت، القسم الأول منه فقط على النسخة المترجمة إلى العربية للمرحوم عثمان أمين، أما الأقسام الأخرى فسنعتمد على النص الإنجليزي

1- Burt .B,c, A Brief of greek Philosophy, BCBurt,MA Boston, Ginn and Company publisher.1889.

2- Colkins.M.W, The The persistent problems of Philosophy,. (The Macmillan Company., London: Macmillan & Co.,Ltd 1907).

3- Cottingham John, A Descartes Dictionary, blackwell publishers, oxford U.K. 1993.

4- Deborah, A. Boyle, Descartes on Innate Ideas, continuum International Publishing . London, 2009.

5- Hoffman Paul, Descartes's Theory of Distinction, in Philosophy and Phenomonological Reseach,Vol.LXIV,No.1, January 2002.(57-78).

6- Margaret.D. Wilson, Descartes, The Epistemological Arguments for Mind-Body distictness in (NOUS). Vol.10, No.1, 1976.Indiana University.

7- the philosophical writings of Descartes. V/1..translated by John cottingham, Robert stoothoff, and Dugald Murdoch (CSM), Cambridge: Cambridge University Press.1985.

8- the philosophical writings of Descartes. V/2..translated by John cottingham, Robert stoothoff, and Dugald Murdoch (CSM), Cambridge: Cambridge University Press.1985.

9- the philosophical writings of Descartes: the correspondence. V/3..translated by John cottingham,

⁴⁵ - the philosophical writings of Descartes, V/2...translated by(CSM),

Cambridge University Press.1985, p : 114.

⁴⁶ - The Philosophical Writings, V/2, p:95.

⁴⁷ - Hoffman Paul, Descartes's Theory of Distinction, Op.cit, p :59

⁴⁸ - Loc.cit., p :59.

⁴⁹ - ديكارت، تأملات في الفلسفة الأولى. ص ص:48-49.

⁵⁰ - Descartes, Rene. Rules in Deborah, A. Boyle(ed), Descartes on Innate Ideas.

Op.cit.P :9

⁵¹ - Deborah, A. Boyle, Descartes on Innate Ideas . Op. cit. P : 10.

⁵² - Margaret.D. Wilson, Descartes, The Epistemological Arguments for Mind-Body distinctness .p:7.

⁵³ - Ibid, p :8.

⁵⁴ - Ibid P : 5.

كما ورد في أعمال ديكارت المعروف بـ " *The philosophical Writings of Descartes* " الجزء الأول، المشهور ب(CSM) نسبة إلى الأحرف الأولى من أسماء مترجميه.

¹⁹ - the philosophical writings of Descartes, V/1...translated by(CSM),

Cambridge University Press.1985..p :224.

²⁰ - ديكارت، قواعد لتوجيه الفكر، ف.14، تر/ سفيان سعد الله، دار سراس للنشر تونس، ص: 114

²¹ - The philosophical Writings of Descartes...l.p :227.

²² - Loc.cit.

²³ - ديكارت، مبادئ الفلسفة، القسم الأول، ترجمة:عثمان أمين، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع. ص: 92

²⁴ - ديكارت، التأملات، التأمل السادس، ص:206.

²⁵ - Woolhouse.Roger.S., Descartes ,Spinoza, leibniz, The concept of substance in the Seventeenth Century Metaphysics Op.cit.,p :80.

²⁶ - ديكارت، المبادئ، القسم الأول، ص: 94

²⁷ - ديكارت، المبادئ، القسم الأول، ص: 65

²⁸ - ديكارت، المبادئ، القسم الأول، ص: 69.

²⁹ - Hoffman, Paul, Descartes's Theory of Distinction, in Philosophy and Phenomological Research, Vol.LXIV, No.1, January 2002.p :57.

³⁰ - ديكارت : مقال عن المنهج، ترجمة: محمود محمد الخضري، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000، ط2. ص:84.

³¹ - ديكارت، المبادئ، القسم الأول، ص: 56.

³² - ديكارت، مقال عن المنهج، ط2. ص ص:149-150.

³³ - ديكارت، المبادئ، القسم الأول، ف.8، ص ص : 56-57.

³⁴ - ديكارت، المقال عن المنهج، ص ص:150-151.

³⁵ - ديكارت، التأملات، التأمل السادس، ص ص:262-263.

³⁶ - Deborah, A. Boyle, Descartes on Innate Ideas , continuum International Publishing . London, 2009.P :1.

³⁷ - Cottingham John, A Descartes Dictionary, blackwell publishers, oxford U.K. 1993. P : 37.

³⁸ - Margaret.D. Wilson, Descartes, The Epistemological Arguments for Mind-Body distinctness in (NOUS)...Vol.10, No. 1976.Indiana University.p :3

³⁹ - ديكارت، التأملات، التأمل السادس، ص:237.

⁴⁰ - ديكارت، التأملات، التأمل السادس، فقرة 18، ص:249.

^{*} - Margaret Douler Wilson (1939-1998) فيلسوفة أمريكية وأستاذة فلسفة

بجامعة Princeton University بين سنتي 1970-1998. حاصلة على درجة الدكتوراه

من جامعة Harvard كما أنها درست بجامعة Oxford. مجال اختصاصها اتركز حول

ميتافيزيقا فلسفة القرن السابع عشر والثامن عشر، قَدِّمت دروساً عن ديكارت و

اسبينوزا و ليبنتز ولوك وباركلي.. من أهم أعمالها "Descartes" 1978، كتاب "The

essential Descartes" 1969، وكثيراً من المقالات جمع بعضها في كتاب: "Ideas and

Mechanism" 1999.

⁴¹ - Margaret.D. Wilson, Descartes, The Epistemological Arguments for Mind-Body distinctness, Op.cit, p :7.

^{*} - Hoffman, Paul (1952-2010) مهتم بالفلسفة الحديثة، فعلى الرغم من أنه كتب

عن كثير من الفلاسفة مثل افلاطون، الأكوييني، سبينوزا، ليبنتز، لوك.. إلا أن اهتمامه

الأساسي تركز حول ديكارت، رأى بضرورة فهم ديكارت من خلال فهم الأساس الأرسطي

السكولاني، من أهم اعماله: مقالات عن ديكارت نشرها سنة 2009 تتضمن مقالات عن

ديكارت مثل: الوحدة والتفاعل بين النفس والجسم، الانفعالات و حرية الإرادة،

الانفعالات الديكارتية والفنائية الديكارتية، ونظرية التمييز عند ديكارت.

⁴² - Hoffman Paul, Descartes's Theory of Distinction, in Philosophy and

Phenomological Research Vol.LXLV., No.1, January 2002, p p :57-78.

⁴³ - Hoffman Paul, Descartes's Theory of Distinction, Op.cit, p : 58.

⁴⁴ - ديكارت، مبادئ الفلسفة، مصدر سابق، ف.60، ص: 94.